﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

اقـــوالُ أهـلِ الشِّركِ تُخالفُ أفعالَهم

لمّا ذَكرتِ الآياتُ السّابقةُ أنَّ المشركين عبدوا الأصنامَ وجعلوها آلهة من دونِ اللّهِ، وخوّفوا الرّسولَ ﷺ من أذاها إذا عابهم؛ جاءتْ هذه الآيةُ لتُبيِّن تناقضَ المشركين، وأنَّ قولَهم يُخالف فعلَهم لمّا سُئِلوا: من خلقَ السّماوات الأرضَ؟ فقالوا: خلقهنّ اللّهُ.

ومنها؛ لمّا تحدَّثَتِ الآياتُ السّابقةُ عن الذي كَذَبَ على الله وكذَّبَ بالصِّدْق إذ جاءَه وعاقبتِه، وحالِ الفريقِ الذي هو ضِدُّه في جميعِ ذلكَ، وذكَرَتْ تخويفَ أهلِ الشِّرْكِ النَّبيَّ ﷺ وردَّتْ على ذلكَ مُسليَّةً له ﷺ ومُثبِّتةً لمَن معَه؛ عادَ الحديثُ عن أهلِ الظُّلْمِ والكَذِبِ والتَّخويفِ في هذه الآيةِ من جهةٍ أخرى هي جهةُ ما سكَن في عقولِهم من تناقُضات تعايَشَتْ وتسالَمَتْ؛ رغم أنَّ الذي بيْنَها من أشَدِّ ضُروبِ التَّناقُضِ معَ وجودِ وِصالٍ وتواصُلٍ قويٍّ بينَ معاني هذه الآيةِ وما قبلَها؛ ففيها امتدادٌ لجملة: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾، ورَدٌّ على جملة: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾: (رأى) أصلٌ يَدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بعَيْنٍ أو بَصيرَةٍ؛ فالرَّأْيُ هو ما يَراهُ الإنسانُ في الأمْرِ، وجَمْعُهُ الآراءُ[2].

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 254.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).

والرُّؤْيَةُ: إدراك المَرْئيِّ؛ وذلك أضرُبٌ بحسب قوى النّفسِ؛ فمنها ما يكون بالحاسَّة وما يجري مجراها، وما يكون بالوهمِ والتَّخيّلِ، وما يكون بالتّفكُّر، وما يكون بالعقل. والرُّؤْيا: ما يُرى في المنام[1]. والرُّؤْيَةُ بالعَيْنِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبِمعنى العِلْمِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْنِ. والمقصود بالرُّؤيةِ في الآيةِ معناها الحقيقيُّ من الإبصارِ بالعينِ.

2) ﴿تَدْعُونَ﴾: الدُّعاءُ كالنِّداءُ؛ إلّا أنّ النّداء قد يُقال بـ (يا) أو (أيا) ونحوِ ذلك من غير أن يضمّ إليه الاسم، والدّعاء لا يكاد يُقال إلّا إذا كان معه الاسمُ، وأصْلُه: إمالَةُ الشَّيْءِ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يكون مِنْكَ، ومنه سُمّيَتِ الرَّغْبَةُ إلى اللهِ ﷻ دُعاءً. تقولُ: دَعَوْتُ فُلانًا دُعاءً ودَعْوَةً؛ أيْ: نادَيْتُهُ[2]. ويأْتي الدُّعاءُ بِمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يُقال: دَعَوْتُ اللهَ، أدْعوهُ؛ أيْ: سَأَلْتُهُ[3]. ويُطلَق على الحَثِّ على الشَّيْءِ والتَّرْغيبِ فيه، فيُقال: دَعا قَوْمَهُ إلى اتِّباعِهِ؛ أيْ: حَثَّهُمْ ورَغَّبَهُم[4]. والمقصودُ بالدُّعاء في الآية: الطَّلَبُ والسُّؤالُ على جهة أنّه من إلهٍ يُعْبَدُ.

3) ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾: (كشف) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على سَرْوِ الشَّيْءِ عن الشَّيْءِ؛ كالثَّوْبِ يُسْرَى عن البدَنِ، ويُقال: كشَفْتُ الثَّوْبَ وغيرَه، أكْشِفُهُ، والأكْشَفُ: الرَّجُلُ الذي لا تُرْسَ معَه في الحَرْبِ، ويُقال: تكشَّفَ البَرْقُ: إذا ملأَ السّماءَ، والمعنَى صحيحٌ؛ لأنَّ المُتكشِّفَ بارِزٌ، والمقصودُ بقوله تعالى: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾: مُزيلاتِ[5].

4) ﴿مُمْسِكَٰتُ﴾: (مسك) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على حَبْسِ الشَّيْءِ أو تحبُّسِه، والبخيلُ مُمْسِكٌ، والإمساكُ: البُخْلُ، ورَجُلٌ مُسَكَةٌ: لا يَعْلَقُ بشيءٍ فيتخلَّص منه، والمَسَكُ: الجِلْدُ المُمْسِكُ للبدَنِ، والمُسْكَةُ من الطَّعام والشَّرابِ: ما يُمْسِكُ الرَّمَقَ، والمقصودُ بقوله: ﴿مُمْسِكَٰتُ﴾ في الآية: مانعات[6].

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رأى).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: (دعا - دعو).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (دعو).
(4) الأمير، التَّحبير: 4/ 5.
(5) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (كشف)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 17.
(6) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (مسك)، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 440.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإقرارُ بالألوهيّةِ مركوزٌ في الفِطَرِ

تُقرِّرُ الآيةُ الكريمةُ ما تنطوي عليه نفوسُ أهلِ الكُفْرِ والشِّرْكِ من الإقرارِ بأُلوهيّة الله؛ إذ هم يُقِرّون بفطرتِهم بأنَّ اللهَ خالقُ السَّماواتِ والأرضِ، وأنَّك - يا مُحمَّدُ - لو سألتَهُم عن ذلك لأجابوا هذا الجوابَ بكلِّ وكادةٍ وثقةٍ؛ ثم أسَّسَ تعالى على ذلك سؤالَهُم ومناقشتَهُم فيما يدعون من دونِ الله على لسانِ نبيِّه محمّدٍ ﷺ، قل لهم يا مُحمَّدُ: هل ما تعبدونه من دون الله آلهةٌ من شأنِها كَشْفُ الضُّرِّ عن من أراد الله ضُرَّه وإمساكُ الرَّحمة عن من أراد اللهُ رحمتَه؟! ثمّ أمَر الله تعالى رسولَه بأنْ يَصْدَع بالاتِّكالِ على الله؛ لأنَّه حسْبُه من كلِّ شيءٍ، ومِن كلِّ ناصِرٍ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾

تعـدُّدُ معاني الواوِ ثراءٌ لحركةِ المعنى

الواو في: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ اعتراضيةٌ على أنَّ جملة ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ اعتراضٌ بينَ جملةِ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ وجملةِ ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ويجوزُ أنْ تكونَ عاطفةً لهذه الجملةِ على: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾. وهذه الجملةُ المعترضةُ أوِ المعطوفُ تمهيدٌ لِما يأتي بعدَه من قولِه: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّه قُصِد به التّوطئةُ إليه بما لا نِزاعَ فيه؛ لأنّهم يعترفون بأنَّ الله هو المُتصرِّفُ في عظائِمِ الأُمور؛ أيْ: خَلْقُ السّماواتِ والأرضِ وما تحويانِه[2]. وإذا كانَتْ هذه الجملةُ معطوفةً على جملةِ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾؛ فإنَّ ذلك من بابِ خلافِ الأصلِ.

والذي يُنْعِمُ النَّظَرَ في معاني الآياتِ يَفْقَهُ أنَّ هذه الجملةَ معطوفةٌ

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 533، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 257.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 16.

على جملةِ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ التي تتعلَّقُ بما قبلَها من معاني آيتِها وآيةِ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ للتّنبيه على أنَّ خيرَ نفْسٍ ممتلئةٍ بهذا المعنى المعطوفِ عليه والمعاني التي تتعلَّقُ به في سياقِ السِّباقِ إنّما هي نَفْسُ رسولِ الله ﷺ، وأنّها لذلك كانَتْ مُهيَّأةً لأنْ تُحاجَّ هؤلاءِ، فلم يدخُل قلبَه الشَّريفَ شيءٌ من الخوفِ الذي أرادوا إلحاقَه به.

مَعيّةُ اللهِ مانعةٌ نبيَّه من الخوفِ من دونِ الخالقِ

سِرُّ تصديرِ جملةِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ بالواو:

صُدِّرتْ جملةُ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ بالواو مع أنَّ ظاهرَ المعنى أنْ تكونَ جملة: (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله) غيرَ مُصدَّرةٍ بالواو؛ لأنّها نِتاجُ ما قبلَها، ولازمٌ من لوازمِه، سواءٌ كان الجملةَ المعطوفَ عليها، أو مجموعَ المعاني من قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ إلى آخرِ جملة: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾، فبينهما كمالُ اتِّصالٍ، ولكِنْ جاءَتِ الواوُ التي لا يبرحُها معنى المغايرةِ؛ فتُشْعِرُ باستقلالِ ما بعدَها عمّا قبلَها؛ لِتَلْفِتَ المُتلقّينَ إلى موقعِ هذه الجملةِ مِمّا قبلَها؛ لأنَّ مجيءَ الواو حينئذٍ خلافُ الأصلِ، وخلافُ الأصلِ من شأنِه اللَّفْتُ والتَّنْبيهُ والإيقاظُ.

اللهُ خالقُ السَّماواتِ والأرضِ بقدرتِه

بَلاغَةُ التَّوْكيدِ في الآية:

تعدَّدتْ وسائلُ التَّوكيدِ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وذلك باجتماعِ القَسَمِ والشَّرْطِ ونونِ التَّوكيد الثَّقيلة في قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾؛ لأنَّ (إنْ) للشّرط في المستقبل، واللّامُ لامُ القَسَمِ، وهذا الأسلوبُ له نكهةٌ خاصَّةٌ؛ لأنّه مُؤسَّسٌ على التّوكيد؛ وأوَّلُ ما فيه من عناصرِ التّوكيد هو القَسَمُ، والمعنَى المُقْسَمَ عليهِ لا بُدَّ أنْ يكون من الأهميّة بمكانٍ؛ لأنّه تواتَر عليه التّوكيدُ من جهة التَّكرار وإنابةِ أحد الجوابيْنِ مَنابَ الآخَر، وأيضًا من جهة أنَّه مُقْسَمٌ عليه، وجوابُ القَسَمِ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾. وإذا كانَ الذي أقْسَم

في التّوكيدِ تهيئةٌ قويّةٌ لِما يترتَّبُ على مجموعِ جملةِ القَسَمِ

هو ربُّ السّماواتِ والأرض؛ كان للمُقْسَمِ عليه شأنٌ أيُّ شأنٍ، وهو إقرارُهم بأنَّ اللّهَ هو الذي خلَق السّماوات والأرض، وهذا الجوابُ هو أساسُ الوحدانيَّة؛ لأنّه ما دامَ قد خلَق هذا فلا يجوزُ في العقل والمنطق أنْ يُعْبَد غيرُه؛ لأنّ عبادةَ من خلَق هي الأصلُ والصّوابُ.

الله وحْـدَه هو خالِقُ العالَمِ

ومِن أسرارِ التّوكيد بالقَسَم في صدرِ الجملة، واللّام ونونِ التّوكيدِ الثّقيلةِ في عجُزِها: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: تصويرُ اعتقادِهم الجازم في أنَّ اللّه وحْدَه هو خالِقُ العالَم؛ وإنْ كانَ ما يُمارسونَه في الواقعِ ضدَّ هذا، أو يُؤدّي إلى ضِدِّه. ومنها أيضًا: مواجهةُ إنكارِهم أنَّه خالقُ السّماوات والأرضِ؛ والذي يدلُّ عليه لسانُ حالِهم من عبادةِ الأصنامِ وغيرِ ذلك[1].

سِرُّ التّعبيرِ بـ (إنْ):

ما كان ينبغي أنْ يُسألوا

عبَّر القرآنُ بأداةِ الشّرط (إنْ) التي لا يكونُ الشّرطُ فيها مقطوعًا بوقوعِه في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ توبيخًا وتبكيتًا على كُفْرِ المسئولينَ وشِرْكِهم؛ لأنَّ الدّاعيَ إلى سؤالِهم هو مناقشتُهُم فيما سكَن في نفوسِهم من عقائد مُتضارِبةٍ ومُتناقِضةٍ؛ معَ ضميمةِ أنَّهُم في الواقعِ على حالٍ يُخالِفُ بالكُلّيَّة إقرارَهم بخالقيَّةِ اللّه؛ أيْ: ألوهيَّتِه تعالى؛ فكان مقتضَى حالِهم سؤالَهم على جهة الكثرةِ والتّكرارِ، لا على جهة القِلّةِ؛ لكِنْ لأجلِ ما رسَخ في نفوسِهم من اعتقادِ خالقيَّتِه تعالى، وما كان ينبغي أنْ يترتَّبَ عليه؛ من إبرازه في الواقعِ: كان سؤالُهم هذا إنّما يكونُ في الظّاهرِ قليلًا.

دلالةُ التّعبيرِ بالسُّؤالِ في قولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾:

لَمّا كان المطلوبُ أنْ يُقِرَّ به أهلُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في غايةِ الأهميَّة،

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 440، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 255 - 256.

وهو أصلُ الإيمانِ والتّوحيدِ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾؛ كانَتْ صورة طلبِ ذلك منهم هي السّؤالَ؛ لأنَّ الاستفهامَ يعني أهميَّةَ المُستفْهَمِ عنه وضرورةَ الالتفاتِ إليه والتَّنبُّهِ له؛ فعبَّر القرآنُ بالسّؤال في قوله تعالى: ﴿سَأَلْتَهُم﴾؛ معَ ما في ذلك من الإيجازِ الذي لا يكونُ لو عُبِّر بغيرِه.

المطلوبُ عظيمٌ، والواقِعُ مريرٌ

سِرُّ وضْعِ الماضي ﴿سَأَلْتَهُم﴾ موضِعَ المضارِع:

جاء التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي ﴿سَأَلْتَهُم﴾ مع أنَّ (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ للشَّرْطِ في الاستقبالِ، ولهذا كان الأصلُ في فِعْلِ الشَّرْطِ بعدَها أنْ يكون مضارعًا بقرينة المضارع في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، ولكِنَّ القرآنَ نظَم السّؤالَ فعلًا ماضيًا في قوله تعالى: ﴿سَأَلْتَهُم﴾ إبلاغًا في تقرير إقرارِهم وعلمِهم بأنَّ الله هو خالقُ السّماواتِ والأرضِ؛ فإنّه معنًى قديمُ السُّكون والرُّسوخِ في قلوبِهم؛ إبلاغًا في توبيخِهم وتبكيتِهم على ما هم عليه في الواقِعِ والذي استدعَى سؤالَهم المذكورَ.

التَّأكيدُ على إقرارِهم وعلمِهم بأنَّ اللهَ هو خالقُ السَّماواتِ والأرضِ

دلالةُ الخطابِ مع السّائلِ والغيبةِ مع المَسئول:

جاءت صيغة فاعل السُّؤالِ في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بتاءِ المخاطَبِ؛ والمُرادُ النّبيُّ ﷺ، والضّمير المفعولُ به (هم) في قوله: ﴿سَأَلْتَهُم﴾ الذي سلَّطَ القرآنُ فِعْلَ السُّؤالِ عليهم، والمقصودُ أهلُ الكذبِ على الله والتّكذيبِ بالصِّدْقِ. ففي إرشادِه ﷺ إلى سؤالِهم تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ شيئًا من الخوفِ لم يُصِبْ قلبَه ولا نفسه فلم يُفْلِحوا، وإنّما ازدادَ قلبُه ﷺ بمعاني الهدى التي دلَّت عليها الآيات السّابقة؛ فاشتدَّ تهيُّأُه لحِجاجِهم ودعوتِهم من جديدٍ. وتوجيهُ السّؤالِ إليهم وراءَه من المعنَى أنَّهم بما اتَّصفوا به في سياقِ السِّباقِ كمَن أنكَر أنَّ الله هو خالقُ السّماوات والأرضِ؛ فلهذا أُرْشِدَ النّبيُّ ﷺ إلى سؤالِهم.

إعلاءُ مقامِ السّائلِ والتَّهوينُ من شأنِ المسئولِ

دلالةُ ميمِ الجمعِ في قولِهِ: ﴿سَأَلْتَهُم﴾:

أهلُ الشّركِ متناقضون بينهم وبين أنفسِهِم

ميمُ الجمع في قوله: ﴿سَأَلْتَهُم﴾ والتي أفادَتْ أنَّ المفعولَ به المسؤولَ جماعةُ أهلِ الشِّرْكِ تدلُّ على أنَّ خَلْقَ اللّه السّماواتِ والأرضَ أمرٌ تُقِرُّ به الجماعة؛ فهو معروفٌ شائعٌ مشهورٌ معلومٌ فيهم، وهذا إبلاغٌ في تصويرِ تناقُضِهم الجماعيِّ العجيبِ؛ حيثُ لم يَخْرُجْ عليهم واحدٌ منهم أو جماعةٌ صغيرةٌ تُنْكِرُ عليهم عبادتَهم الأصنامَ، وتواجهُهُم بأنَّ ذلك ضدُّ ما يعتقدون من خالقيَّةِ اللّهِ.

بلاغةُ الاستفهامِ في قولِهِ: ﴿مَّنْ خَلَقَ﴾:

تأنيبُهم وتوبيخُهم على عبادةِ غيرِ اللهِ

﴿مَّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ اسمُ استفهام، يُسأل به عن العاقلِ، والغرضُ منه التّقريرُ بفاعلِ الخَلْقِ[1] والدّعوةُ للتَّفكُّرِ فيما وراءَ الاستفهامِ؛ معنًى وغرضًا؛ لأنَّ مَحْضَ معناه التّنبيهُ.

دلالةُ التّعبيرِ بالخَلْقِ مادّةً وصيغةً:

ليس مَن يخلُقُ كمَن لا يخلُقُ

آثَرَ القرآنُ التّعبيرَ بالخَلْق في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ دون غيرِه؛ لأنّه يحملُ مع معنَى الإيجادِ معنَى الإبداعِ على غيرِ مِثالٍ؛ لأنَّ ذلك ليس إلّا للّه تعالى؛ لأنَّ السّياقَ للتَّفرقةِ بينَ الإلهِ الحقِّ وبينَ الأصنامِ التي يزعمونها آلهةً؛ فهو الدّالُّ على الألوهيَّةِ؛ لأنَّه يَعْني أنَّ آلهتَهُم لا تَستطيعُ أنْ توجِدَ شيئًا من عدمٍ؛ فضلًا عن أنْ يكونَ ليس له مِثالٌ سابقٌ يُحْتَذَى به؛ أيْ: لا يكونُ منها خَلْقٌ مُطلقًا، وهذا أبلغُ في الاستدلالِ والتّقريرِ، وفي الإنكارِ عليهم تخويفَهم النّبيَّ ﷺ بهذه الأصنامِ، ولو قيل: (مَنْ أبدعَ أو فطَر السّماوات والأرض) لَما كان ذلك. ولمّا كانَ السُّؤالُ عن الخَلْقِ بقيدِ وقوعِه على السّماوات والأرضِ، وكان خَلْقُهُما قد وقَع ومضَى؛ نظَم تعالى معنى الخَلْقِ فعلًا ماضيًا.

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 439.

سِرُّ تخصيصِ السُّؤالِ بخلقِ السَّماواتِ والأرض:

الاحتجاجُ بخلقِ السّمواتِ والأرضِ أظهرُ وأبهرُ

جعَل القرآنُ السُّؤال عن خَلْقِ السّماوات والأرضِ في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ دون خلق أنفسهم؛ لأنّهما أعظمُ المخلوقاتِ خَلْقًا في أبصارِ العربِ؛ واللّهُ تعالى قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57]؛ فالاحتجاجُ بخَلْقِهما أظْهَرُ وأبْهَرُ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يُشاهِدُ السَّماءَ والأرضَ. ولأنَّ ذلك هو الألصقُ بسياقِ التّرهيبِ والتّهديدِ؛ فإذا كانَ اللّهُ خالقًا السّماواتِ والأرضَ، وكانوا هم يعيشون على الأرضِ؛ والسّماءُ فوقَهُم، وكانَ تعالى قادرًا على أنْ ينتقِمَ مِمَّن يعبدُ سواهُ من دونه؛ فكان يأتيهم عذابُه من فوقِهم ومِن تحتِهم؛ كان التّعبيرُ بالسَّماواتِ والأرضِ أبلغَ في تحقيقِ هذا الغرضِ من أنْ يُقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾؛ لأنَّ السُّؤال عن خلقِهم هم ليس مقصودًا في هذا السّياقِ، ولأنَّ خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ يلزمُ منه خلقُ النّاسِ ففي الاقتصارِ عليهما إيجازٌ بديعٌ.

دلالةُ التَّعريفِ بأل:

مَن عرَف السّماواتِ والأرضَ عرَف اللهَ

نظَمَ القرآنُ مفعولَ الخَلْقِ الثُّنائيَّ مُعَرَّفًا بـ (أل) في قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ فأمّا (الأرض) فـ(أل) فيها للعهد الذِّهْنيِّ، وكذا السّماواتُ مع أنَّهم لم يَروا كلَّ السَّماواتِ، ولم يَعهدوها جميعًا، ولكِنْ لَمّا نُزِّلَ أهلُ الشِّرْكِ منزلةَ من عرَف السّماواتِ كلَّهُنَّ؛ لأنَّ من قدِر على خلْق سماءٍ قدِرَ على خلقِ أفرادٍ كثيرةٍ منها؛ فكانوا في حُكْم من شاهدَ السِّتَّ الباقيةَ، وعرَفَها؛ لذلك كانَتْ (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ، وهذا يَعْني كمالَ ظهورِ المقصودِ من ذِكْر خَلْق السّماوات والأرض.

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (الأرضِ)

قدَّمَ القرآنُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (الأرضِ) في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ لأغراضٍ عديدةٍ من ناحية

يريدُ القرآنُ أنْ يكونَ نَظَرُهُم في سبيلِ تَرَقّيهِم

فضلها وعلوّها سبقَ تفصيلُ القولِ فيها في الموسوعةِ في أكثرَ من موضعٍ، ويمكنُ أن نُضيف لها هنا غرضًا جديدًا يتناسبُ وسياقَ الآيةِ في إثباتِ الوحدانيةِ للّه تعالى وإبطالِ عقيدةِ المشركين في الأصنامِ وتوبيخِهم لعبادةِ من وصَفهُم القرآنُ بالدّونيَّةِ والحقارةِ ويتركون عبادةَ العليِّ الأعلى؛ فكان تقديمُ السّماواتِ من هذا البابِ؛ لأنَّ السَّماواتِ فوقَهم والأرضَ تحتَهم؛ فالأعلى أدلُّ على القهرِ والإحاطةِ والهيمنةِ، وهذا ألصقُ بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾، ومُتناسبٌ مع سياق الاستفهام؛ لأنَّ غَرضَه التَّقريرُ بالفاعلِ، وهم إذا أقرّوا بالأعلى وهو ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لزمهم الإقرارُ بالأدنى وهو (الأرض)؛ فالتَّقديمُ تمكينٌ وتحقيقٌ للتّقريرِ.

سِرُّ الجمعِ والإفرادِ في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾:

سبحانَ المحيطُ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعِلْمًا

جَمَعَ القرآنُ الكريمُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وأفرد (الأرض) في قوله: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ - وسبقَ تفصيلُ القولِ في مثل ذلك في الموسوعةِ - لكنّا نُشير هنا إلى ما يتناسبُ وسياقَ الآية؛ فالجمعُ هنا أبلغُ في سياق الإنكارِ عليهم تخويفَهُم نبيَّهُم ﷺ بما يعبدونه من دون اللّهِ؛ لأنَّ الذي يُدافِعُ عن نبيِّه ويدفَعُ عنه إنّما هو خالقُ السّماواتِ؛ فالجَمْعُ ألصقُ وأنْسَبُ بالمُجاوَرِ السّابقِ المُباشِرِ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

وأمّا (الأرضُ) فجاءتْ مُفردةً في كلِّ القرآنِ؛ لأنَّها طبقاتٌ متلاصقةٌ ليس بينها فواصلُ فهيَ التي يُشاهِدونَها ويَعْرِفونَها؛ لكنَّهُم لا يتصوَّرون انتقامًا وعقابًا إلهيًّا من الأرضِ كلِّها إلّا على سبيلِ التَّبَعيَّةِ للسّماءِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالقولِ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾:

عبَّر القرآنُ بالقولِ في جوابِ القَسَمِ في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؛ لأنّهم إنْ سُئِلوا وأجابوا لم يُجيبوا إلّا بالقولِ؛ لأنَّ مُمارساتِهم

العقديَّةَ والعمليَّةَ الفِعْليَّةَ في الواقِعِ لا تدلُّ على اعتقادِهِم هذا، وإنّما تدلُّ على إشراكِهم الأصنامَ معَ اللّهِ في الألوهيَّة؛ فيلزمُ من عبادتِهم إيّاها إثباتُ الخَلْقِ لها؛ فتكونُ خالقةً السّماواتِ والأرضَ وغيرَهُنَّ من المخلوقاتِ، وهذا باطلٌ.

يقولون بأفواهِهم ما ليس في قلوبِهِم

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾

نظَم القرآنُ القولَ الذي هو جوابُ القَسَمِ في قولِه تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ فعلًا مضارعًا؛ لأنَّ تعليقَ حصولِ الجوابِ بحصولِ الشَّرْطِ إنّما هو في الاستقبالِ. وفيه أيضًا إشارةٌ إلى ثبوتِ جوابِهم وعدمِ تغيُّرِه؛ فكلَّما سألهم سائلٌ قائلًا: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كرَّروا قولَهُم وجدَّدوه دونَ أدنى تغييرٍ: ﴿ٱللَّهُۚ﴾، وهذا يُصوِّرُ رسوخَ هذه الحقيقةِ في قلوبِهم، وفي هذا إقامةٌ للحُجَّةِ عليهم.

القولُ بلا عمَلٍ لا يُفيد وإنْ تكرَّرَ ألفَ مَرَّةٍ

دلالةُ التّعبيرِ باسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُۚ﴾:

ذكَر القرآنُ اسْمَ الجلالة ﴿ٱللَّهُۚ﴾ في جوابِ القَسَمِ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾؛ لأنّه الاسمُ الذي لم يُطلَق على غيرِ اللّهِ تعالى ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: 65] فهو نَصٌّ في الدَّلالةِ على الإلهِ الحقِّ؛ لأنّه عَلَمٌ على الذّاتِ العَلِيَّةِ؛ فقولُ أهلِ الشِّرْكِ: ﴿ٱللَّهُۚ﴾ يدلُّ على أنَّ إقرارَهُم تامٌّ واضِحٌ، وأنَّهُم يقصدونَ الإلهَ الذي يدعوهم نبيُّهُم محمّدٌ إلى عبادتِه وإخلاصِ العبادة له[1].

يُقرّون بالأُلوهيّة للهِ تعالى، ومع ذلك يُشركون بِهِ

بلاغةُ الحَذْفِ في قولِه: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾:

اسمُ الجلالة في ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ مقولُ القولِ؛ وهوَ إمّا فاعلُ فِعْلٍ محذوفٍ - معَ مفعولٍ محذوفٍ - والتّقديرُ: (خلقَهُنَّ اللّهُ) وقُدِّرَ فعلًا؛ لأنَّ المُفسِّرَ للمحذوفِ فِعْلٌ في قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَلَقَ﴾. وإمّا مبتدأٌ خبرُه الفِعْليُّ محذوفٌ، والتّقديرُ: (اللّهُ خلقَهُنَّ)؛ فالحذفُ على الأوَّلِ فيه دلالةُ الإسراعِ إلى النُّطْقِ بجوهرِ الجوابِ وهو اسْمُ

الدّلالةُ على سرعةِ النُّطقِ بالجوابِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 450.

الجلالةِ؛ وهذا أبلغُ في التّقريرِ وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم؛ لأنَّ كونَه تعالى خالقَهما أمرٌ لا جدالَ فيه عندَهُم، والحذفُ على الثّاني فيه أنّ إسنادَ خلقِهِنَّ أوِ الخَلْقِ عمومًا إلى اللّه شيءٌ لا ريبَ فيه؛ فيكفي أنْ يُذكَر ذلك في صيغة السُّؤالِ، ولا داعيَ لتَكراره في الجوابِ لكمال ظهورِه. والوجهُ الأوَّلُ أعلى.

سِرُّ فَصْلِ الأمْرِ بـ ﴿قُلْ﴾ عمّا قبلَهُ:

المُتلقّي مع الاستئنافِ البيانيّ يَقِظٌ نشيطٌ

ورَد قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مفصولًا عمّا قبلَه؛ لأنَّ جوابَ أهلِ الشِّرْكِ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، ولمّا كان مُخبرًا بحقيقة إسناد الأمر إليه سبحانه، ومع ذلك يُشركون به؛ كأنّه قيل: فماذا أصنعُ؛ فقال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على أسلوبِ حكايةِ المُقاوَلةِ والمُجاوَبةِ لكلامهم المحكيِّ بجملة: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾؛ ولذلكَ لم تُعْطَفْ الثّانيةُ بالواوِ ولا بالفاءِ، والمعنَى: ليقولنَّ اللّهُ؛ فقل: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1].

سِرُّ الأمْرِ بـ ﴿قُلْ﴾:

إعلاءُ كلمةِ اللهِ ونصرُ رسولِهِ ومَنْ معه

لَمّا سبَقَ بيانُ أنّ أهلَ الكذبِ والتّكذيبِ أرادوا تخويفَ النّبيِّ محمّدٍ ﷺ المُبلِّغِ عن اللّه تعالى، وكانَ الغرضُ من ذلكَ إخفاءَ دعوتِه ودينِه وقرآنِه، وإضعافَ ذلكَ كلِّه؛ عامَلَهُم اللّهُ بخلافِ قَصْدِهم، وأنبأ ببعضِ عناصرِ التَّعبيرِ في السّياق عن ضدِّ ذلك؛ وهو التَّبْشيرُ بإعلاءِ كلمةِ اللّهِ، ونصرِ رسولِ اللّهِ ومَن معَه، وعلوِّهم، واتِّساعِ رُقْعةِ أرضِ الإسلام؛ وهذا ظاهرٌ في أمْرِه ﷺ بالأمْرِ ﴿قُلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ﴾، وهذه البُشرى من الدّلالاتِ الغيبيّةِ التي يدلُّ عليها التَّعبيرُ بالقولِ.

سِرُّ تصديرِ الجملةِ الاستفهاميّةِ بالأمرِ ﴿قُلْ﴾:

تصديرُ الجملةِ الاستفهاميَّةِ بفِعْلِ الأمرِ: ﴿قُلْ﴾؛ للإيذانِ بأهميَّة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 450، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 16.

المَقولِ، والاعتناء بتبليغِه فَوْرَ تلقّيهِ والمواجَهَةِ به[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الذي يهدي إلى الله هو اللهُ، وأنَّه هو الذي يدلُّنا على الطّريقِ الذي يَصِل بنا إليه، وأنَّنا لا نعتقدُ فيه سبحانه إلّا ما هدانا إليه، ودلَّنا عليه، وأمَر خيرَ خلْقِه أنْ يقولَه لخَلْقِه؛ وإنْ ضلّوا[2].

الذي يهدي إلى الله هو اللهُ، وهو الذي يدلُّنا على الطّريقِ إليه

بلاغةُ الاستفهامِ في قولِهِ ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

جعَل القرآنُ مَقولَ القولِ جملةً استفهاميَّةً سلّط فيها همزةَ الاستفهام على رؤيةِ ما يدعوه المشركون من دونِ اللهِ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ غرضُه التّقريرُ بالفرعِ بعدَ تقريرِهم بالأصلِ في جملة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ معَ تقريعِهم؛ لتخويفهم نبيَّهُم ﷺ ممَّن ليس له أمرٌ بعَقْدٍ ولا حَلٍّ.

الاستفهامُ أساسٌ وتمهيدٌ يتأسَّسُ عليه ما بعدَهُ

ويحتملُ أن يكون إنكاريًا؛ أي: إنكارُ عليهم دعوتَهم الأصنامَ من دونِ اللهِ، أو إنكارٌ لظنِّهم أنّ آلهتهم تكشف ضرًّا.

وكلٌّ من التّقرير والإنكار والتَّقريع والتَّبْكيتِ وما جَرَى في هذا الطّريق من المعنى قد قوي واشتدَّ بتفريعِ ما بعد الفاء على ما قبلها. وذهَب المطعني إلى أنَّ هذا الاستفهامَ حقيقيٌّ؛ الغرضُ منهُ استحضارُ صورةِ المُستفهَم عنه في الذِّهن ليُحكم عليه؛ وهو حاضرٌ ماثلٌ فيه؛ لأنَّ الحُكْمَ على المجهولِ أو الغائبِ عن الشُّعورِ لا يُفيدُ[3].

سِرُّ تقديمِ قولِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾

قُدِّمت جملةُ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ على قولِه: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ لأنَّ غرضها تقريرُ أنَّ خالقَ العالمِ هو الله؛ لأنَّهم زعموا تخويفه ﷺ مَعرَّةَ الأوثان بدليلِ قولِهِ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؛

المؤمنُ باللهِ حقَّ الإيمانِ لا يُخوِّفهُ أحدٌ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 440.

(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 258.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 450، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 602، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 16، و22/ 324، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 312، 439.

فكان مُناسبًا تقديمُ مسألةِ التَّقرير التي ينبني عليها الجواب لتكون الحُجّةُ أثبتَ وألزَمَ للمشركين[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاءِ في ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

المُـقـارَنـةُ بـينَ الأشيـاءِ تُظْهِرُ الحقَّ والباطلَ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ للسّببيّة والتّفريع؛ والمُسبَّبُ عنه المُفرَّعُ عنه اعترافُهم له سبحانه عن طريقِ نبيِّه بجميعِ الأمرِ، وهذا التَّفْريعُ يفيدُ مَحاجَّتَهُم على لازمِ اعترافِهم بأنَّ اللّه هو خالقُ السّماواتِ والأرضِ؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزُّمَر: 64]. وهذا تفريعُ الإلزامِ على الإقرارِ، والنّتيجةِ على الدّليلِ؛ فإنّهم لَمّا أقَرّوا بأنَّه خالقُ السّماواتِ والأرضِ؛ كان يلزمُهم أنْ يُقِرّوا بأنَّه المُتصرِّفُ فيما تَحْويه السّماواتُ والأرضُ[2].

على الإنسانِ أن يتعقَّل الأمـورَ ويزنَها

وقد تكونُ الفاءُ عاطفةً لِما بعدَها على محذوفٍ ليس مسكوتًا عنه؛ لأنَّ هذه الفاءُ نبَّهَت إليه، وتقديرُ الكلامِ: (قل أتنبَّهتُم ووعيتُم وعقلتُم فرأيتُم ما تدعون من دون اللّه آلهةً من شأنِها كشفُ الضُّرِّ عن من أرادَ اللّهُ ضُرَّه وإمساكُ الرّحمة عن من أراد اللّه رحمتَه؟)[3]، أو عطفٌ على ما قبلَه، والهمزةُ الاستفهاميّةُ مُقدَّمةٌ من مُؤخَّر، وهذا هو المناسبُ لبيانِ تعقيبِ ما بعده بما قبلَه[4].

سِرُّ التّعبيرِ بالرُّؤْيَةِ في قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾

حَمْلُ الرُّؤْيَةِ على الحقيقةِ كمالُ إقرارٍ بوحدانيّتِهِ سبحانه

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرُّؤيةِ في قولِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ لتعدُّد معانيها؛ فذهب جمهورُ العلماءِ إلى تفسير الرُّؤية في مِثْلِ هذا السّياق بالإخبار؛ أيْ: (أخبروني) على سبيل المجاز المرسل لعَلاقَة السَّببيَّة[5].

(1) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 13/ 392.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 450، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 16.
(3) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 257.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 532.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 24/ 135.

وذهَب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ الرُّؤية قلبيَّةٌ[1]؛ لكنَّ المطعني حقَّقَ المسألة؛ فذهب إلى أنَّ المُراد من الاستفهام إحضارُ صورة المُسْتَفْهَم عنه في الذِّهْن؛ ليَحْكُم عليها؛ وهي حاضرةٌ ماثلةٌ فيه؛ فالرّسول ﷺ يأمرُهُم بأنْ يستحضروا حقيقةَ أصنامِهم في أذهانهم، وليسمعوا ما يصفُها به من أوصافٍ مُزْرِيةٍ؛ ليُبيِّنَ لهم خطأ ما هم فيه من سوء الاعتقاد؛ فالرُّؤيةُ بصريَّةٌ على ظاهرِها[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

نظَم القرآنُ معنَى الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ فِعْلًا ماضيًا؛ للإبلاغِ في تقريعِهم وتبكيتِهم وتوبيخِهم على عبادتِهم هذه الأصنامَ الباطلةَ الحقيرةَ من دون اللّه؛ فإنَّهم كأنَّهم لم يعرفوها من قبل، فلم يقفوا مع أنفسهم؛ يفكِّرون في حقيقتِها، وهل مِثْلُها يستحقُّ عبادةً ودعاءً؟ معَ أنَّ حقيقةَ أمرها وشأنِها لا يحتاجُ إلى طولِ نظرٍ وتَكرارِ فكرٍ؛ فلهذا لم تُنْظَم الرُّؤيةُ فعلًا مضارعًا.

المبالغةُ في توبيخِ المشركين لدعائِهم الأصنامَ

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿مَّا﴾ لغيرِ العُقلاءِ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ﴾

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿مَّا﴾ لغيرِ العقلاءِ في قولِه تعالى: ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بعدَ التّعبير عنها بأداة الذُّكورِ العقلاءِ في قولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ السّائلَ النَّصوحَ ينبغي له أنْ يُنبِّه الخَصْمَ على محلِّ النُّكْتةِ ليَنْتَبِه من غفلتِه؛ فيرجعَ عن غلطتِه[3]، ولَمّا عظَّموا تلك الآلهةَ الباطلةَ بتخويفِهم بها النَّبيَّ ﷺ وكانَ السّياقُ هنا لإثباتِ عجزِها عن أنْ تفعلَ شيئًا؛ حقَّرَها القرآنُ واستهزأ بها وسخِر منها؛ بالتّعبيرِ عنها بلفظ ما لا يَعقِلُ، وصَوَّرَ بما في ﴿مَّا﴾ من غموضٍ وإبهامٍ مع مدِّ ألِفِها أنَّها غارِقَةٌ في الضَّعْفِ والحقارةِ والعَجْزِ.

تحقيرُ آلهتِهم يوجِعُهم من بَعْدِ تقريرِهم بخالِقيَّةِ الله تعالى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 16.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 439.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 450.

سِرُّ التّعبيرِ بالدُّعاءِ دونَ العبادة:

معنَى الدُّعاءِ مُمْسِكٌ بما قبلَه وبما بعدَه

عبَّر القرآنُ بالدُّعاءِ دونَ العِبادَةِ في قولِه تعالى: ﴿مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تناسُبًا معَ السِّباق واللِّحاقِ؛ فهذا الدُّعاءُ هو دُعاءُ السُّؤالِ والاستِغاثَةِ ونحوِ ذلكَ مِما يدلُّ على اعتقادِ الدّاعي الألوهيَّةَ فيما يدعوهُ؛ ولذلك يُفسَّرُ الفعلُ ﴿تَدۡعُونَ﴾ بـ (تعبدون)، وبطلبِ الحاجةِ؛ ففي التَّعبيرِ به إشارةٌ إلى إقبالِهم بكُلِّيّاتِهم على تلك الآلهةِ الباطلةِ، فهم ذَوو رغبةٍ عظيمةٍ في عبادتِها؛ وذلك جهلٌ عظيمٌ واعتقادٌ قبيحٌ؛ فالتَّعبيرُ به ألصقُ بقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾، وبقوله: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، وقولِه: ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾؛ لأنَّ هذا الكاشِفَ والمُمْسِكَ من شأنِه أنْ يُسأل ويُستغاثَ به ويُلْجَأ إليه.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَدۡعُونَ﴾:

في استحضارِ حالِ دُعائِهم بعدَ تقريرِهم بخالقيَّةِ اللهِ كلَّ ذَمٍّ لهُم

نظَم القرآنُ معنَى دُعائِهم آلهتَهُم في قولِه تعالى: ﴿مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فعلًا مضارِعًا؛ إشارةً إلى استمرارِهم على الكُفْرِ والشِّرْكِ، وبقائِهم عليه؛ فعبادتُهم إيّاها مُتكرِّرَةٌ مُتجدِّدةٌ بتجدُّدِ ما يُلجئهم إلى دعائها؛ فهم في ضلالٍ عظيمٍ.

سِرُّ حذفِ عائدِ الموصولِ ﴿مَّا﴾:

مِن شأنِ آلهتِهم أنْ لا تُدْعَى من الأصلِ

حذَفَ القرآنُ العائدَ على الموصولِ ﴿مَّا﴾ وهو مفعول الفعلِ في قوله: ﴿مَّا تَدۡعُونَ﴾، والأصلُ: (ما تدعونه)؛ إشارةً في لُطْفٍ إلى أنَّه ما كانَ ينبغي أنْ تَدْعوها من دون اللّه الذي خلَق السّماواتِ والأرضَ، وأنتم تُقِرّون بذلك؛ ففي الحذفِ إنكارٌ لطيفٌ عليهم أنْ يفعلوا ذلك، وتوبيخٌ، واستبعادٌ له، وتعجُّبٌ منهم. وحسَّنَ الحذفَ العِلْمُ بالمحذوفِ من السّياق. وفيه أيضًا: تهكُّمٌ بالمحذوفِ، وسخريةٌ منه؛ لإفادتِه أنّ هاتيك الأصنامَ إنما تُعْرَفُ بدعاءِ هؤلاءِ إيّاها، فلا حاجةَ لذلك إلى ذكرِها.

بلاغةُ موقعِ جملةِ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

الأصنامُ ليست محلًّا للعبادةِ كما يزعُمُ المشركون

قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حالٌ من قوله تعالى: ﴿مَّا تَدۡعُونَ﴾، وفي نَظْمِه حالًا إشارةٌ إلى ظهورِ أنَّ هذه الآلهةَ الأصنامَ لا ترقَى إلى حالِ أنْ تُعْبَدَ وتُدْعَى وتُتَّخَذَ آلهةً؛ فمِنَ الظّاهرِ جِدًّا أنَّها قاصِرةٌ عن ذلك؛ وبهذا تعلو نبرةُ الإنكارِ وغيرِه من معاني الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿دُونِ﴾:

تحقيرُ الأصنامِ وعابديها

لَمّا سبقَ تحقيرُ هذه الآلهةِ التي يدعوها أهلُ الشِّرْكِ من دون اللهِ بالتَّعبير عنها بـ ﴿مَّا﴾، امتدَّ التَّحقير لها بالتَّعبيرِ عنها بكلمة ﴿دُونِ﴾ التي تُقال في الأصل للقاصِر عن الشّيء، وقال بعضُهم: (دون) مقلوبٌ من الدُّنوّ، والأَدْوَنُ: الدَّنيءُ[1] حتّى صار معناه في مِثْلِ هذا السّياقِ الذي نحنُ فيه: (غير)؛ أيْ: بالذين من غيره، فهذه الكلمةُ زادَتْ في بيانِ حقارةِ الأصنامِ والأوثانِ.

وفي التّعبيرِ بقولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى بُعدِهم عن التَّخويف الذي زعمه المشركون في قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾؛ لأنَّه لا شيء إلّا وهو من دونه ﷻ وتحت قهره.

سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ بالإظهارِ دونَ الإضمار:

كمالُ ألوهيَّتِه بادٍ في كلِّ شيءٍ؛ فلا يُدعى غيرُه

كان الظّاهرُ أنْ يُعبَّر عن اسمِ الجلالةِ بالضَّميرِ فيُقال: (من دونه) لذِكْره صراحةً من قبلُ في قولِه تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾؛ ولكنْ جاء التَّعبيرُ باسمِ الجلالةِ مُظْهَرًا؛ لأنَّه يدلُّ على كمالِ ظهورِ ألوهيَّةِ اللهِ في الكَوْنِ؛ بما يتلاشَى معَها أيُّ ادِّعاءٍ بألوهيَّةِ أيِّ شيءٍ؛ وهذا يتلاءمُ بشدَّةٍ معَ وقوعِ قولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حالًا؛ فكلُّ شيءٍ ظاهرٌ جِدًّا أنَّه دونَه تعالى، وتحتَ قهرِه؛ فكيف يُخوِّفونه بالذين من دونه؟.

(1) الراغب، المفردات: (دون).

سِرُّ فَصْلِ جُملةِ ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾:

التَّفْصيلُ بعدَ الإجمالِ المَصْحوبِ بالتَّنْبيهِ

فُصِلتْ جملةُ ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها بيانٌ وتفصيلٌ لجملةِ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مع المفعولِ الثّاني المحذوفِ؛ فبينهما كمالُ اتِّصالٍ. "وهذه الجملة الشّرطيّة وما عُطِف عليها هي المقصودُ من ذِكْرِ: ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ فليس المُرادُ: أفرأيتم ما تدعونَ من دونِ اللّهِ هل خَلقوا من الأرضِ أم لهم شِركٌ؟ وإنّما المرادُ: هل هنَّ كاشفاتُ ضُرٍّ أراده اللّهُ، وهل هنَّ مُمسكاتُ رحمةٍ أرادها اللّهُ"[1].

المفعولُ الثّاني لقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ بين الإثباتِ والحذف:

التّأكيدُ على أنَّ هذه الأصنام من شأنها ألّا تَخلُق

قولُه تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ في محلِّ نَصْبٍ مفعولٌ ثانٍ للفعلِ في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾؛ وهذا جارٍ على أنَّ معنى قولِه: (أرأيتم): أخبروني. وذهَب بعضُ العلماءِ إلى أنَّ المفعولَ الثّانيَ محذوفٌ، سدَّ مَسَدَّه جوابُ الشّرطِ المعترضُ بعدَ المفعولِ الأوّلِ؛ بناءً على قاعدةِ اللّغة العربيّة عندَ اجتماعِ مبتدأٍ وشرطٍ أنْ يجري ما بعدَهما على ما يُناسِبُ جملةَ الشّرطِ؛ لأنَّ المفعولَ الأوّلَ لأفعالِ القلوبِ في معنى المبتدأِ[2]. فعلى القولِ بأنَّ المفعولَ الثّاني للفعلِ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ محذوفٌ؛ فإنَّ جواب الشّرط: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ دليلٌ على المفعولِ الثّاني لفِعْلِ الرُّؤية، والتّقديرُ: (أفرأيتم ما تدعون من دون الله كاشفاتِ ضرِّه؟)[3].

المشركون مُتناقضون في أفكارِهِم

والأعلى في ضوءِ مناقشة أهل الشِّرْكِ في أمْرِ العقيدةِ على مُسْتَوًى قريبٍ يُلاحِظُ تناقُضَهُم الدّالَّ على ضعفِ تفكيرِهم لا محالةَ أنْ يكونَ تقديرُ المفعولِ الثّاني المحذوفِ نحوَ: (أفرأيتم ما تدعون

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 259.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 450، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 16، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 518.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 17.

من دون الله تَخْلُقُ شيئًا؟)، ويكونَ ما بعد ذلك ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ تفصيلًا وبيانًا لمجموعِ هذه الجملة التي حُذِفَ فيها المفعولُ الثّاني. وسِرُّ الحَذْفِ هو تحقيقُ أنَّ من شأنِها أنْ لا تَخْلُق، والإسراعُ إلى تفصيلِ ذلك وبيانِه ببعضِ الشّواهدِ الدّالّة على نفيِ الخَلْقِ عنها.

بلاغةُ الاعتراضِ بجملةِ الشَّرط:

في الاعتراضِ توكيدٌ لعَجْزِ الأصنامِ عن أنْ يكونَ منها نوعُ خَلْقٍ

على القولِ بجواز كوْنِ جملة ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ اعتراضًا فإنَّ فائدةَ الاعتراضِ هي اللَّفْتُ إلى مضمونِه الذي هو في صميمِ التّوحيدِ، وفي صميمِ الرَّدِّ على شِرْكِهم الكائنِ في قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ لأنَّ الاعتراضَ خلافُ الظّاهرِ. ووقوعُ هذا المعنى اعتراضًا معَ ضميمةِ ما سبَق من جملةِ التّخويفِ: إنباءٌ بمضمون ما بعده؛ وهو ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾. وإذا كان الاعتراضُ مُقدَّمًا من تأخيرٍ فإنَّ ما بعدَه بُنِيَ عليه بناءً مكَّنَه في موقعِه؛ كأنَّه ليس مُقدَّمًا من تأخيرٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِنْ﴾:

إرسالُه ﷺ للعالَمينَ رحمةٌ

عبَّر القرآنُ بأداة الشّرط: ﴿إِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ للدّلالة على الشّكِّ أو عدمِ القطعِ، وقد يكون نادرَ الوقوعِ أو قليلَه؛ فلهذا يُشَكُّ في وقوعِه؛ لذا عبَّر بها هنا؛ تعريفًا بجانبٍ من جوانبِ صفاتِ اللهِ وشؤونِه؛ وهو أنَّ رحمتَه أوسعُ من غضبِه؛ فلهذا كانَتِ العافيةُ أكثرَ من البَلْوَى[1]، ومثلُ ذلك يُقال مع أنَّ المقدّرة في جملة الشّرطِ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾؛ تأسيسًا على أنَّ في التّعبيرِ بالرَّحمةِ عن النَّفْعِ إشارةً إلى أنَّ إرسالَ اللهِ محمّدَ بنَ عبدِ اللهِ إليهم نبيًّا ورسولًا رحمةٌ، وأنَّ ما أنزلَه عليه من كتابِه رحمةٌ؛ فأهلُ الكُفْرِ والشِّرْكِ يشكّون في كونِ ذلك كلِّه رحمةً بهم وإحسانًا إليهم؛ بسبب دعائِهم آلهتَهُم من دون اللهِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 450.

بلاغةُ المجازِ المُرْسَلِ في فعلِ الإرادة:

الإرادةُ الحقيقيّةُ هي لله تعالى، وما نسبوه للأصنامِ باطلٌ

لمّا كانَ المُرادُ من الإرادةِ في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وقولِه تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ ما يتسبَّبُ عنها من وقوعِ الضُّرِّ ووقوعِ النَّفْعِ المُعبَّرِ عنه بالرَّحْمة؛ لأنَّ كلًّا من الضُّرِّ والنَّفْعِ المذكورَيْن قد يَحْصُلُ، والأصلُ أنْ يُقال: (إنْ ضرَّني اللهُ، أو رحِمَني)، فكانَ التَّعبيرُ بالإرادةِ عن الفِعْلِ المُسبَّبِ عنها مجازًا مُرْسلًا لعَلاقَةِ السَّببيَّة؛ كما عُبِّر بالقراءةِ عن الإرادةِ مجازًا مُرسلًا لعَلاقَةِ المُسبَّبيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النَّحل: 98]. والقرينةُ هنا قولُه: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الدّالُّ على وقوعِ هذا الضُّرِّ، وقولُه: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؛ الدّالُّ على وقوعِ هذه الرَّحمة.

الأصنامَ ليسَتْ لها إرادةٌ أصلًا

وبلاغةُ المجازِ كامنةٌ في اللَّفْتِ بمعنى الإرادةِ المُسنَدة إلى الله إلى أنَّ الأصنامَ ليسَتْ لها إرادةٌ أصلًا؛ فَضْلًا عن أنْ يكونَ لها قدرةٌ على كَشْفِ ضُرٍّ، أو إمساكِ رحمةٍ؛ وهذا أبلغُ في تخويفِهم، وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، وتنفيرِهم من دعاءِ تلك الآلهةِ الباطلةِ، وترغيبِهم في عبادةِ الله، وإخلاصِ العبادةِ لهُ تعالى.

سِرُّ التَّعبيرِ بالإرادةِ دونَ المشيئة:

المشيئةَ من الله تقتضي وجودَ الشَّيْءِ، والإرادةُ منه لا تقتضي وجودَ المُرادِ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالإرادةِ دون المشيئةِ؛ لأنَّ المشيئةَ من الله تقتضي وجودَ الشَّيْءِ، وأمّا الإرادةُ منه تعالى فلا تقتضي وجودَ المُراد، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر: 31]، ومعلومٌ أنَّه قد يحصُلُ العُسرُ والتَّظالمُ فيما بين النّاس، والآيةُ جاءتْ بالحديثِ عن كشفِ الضُّرِّ بعدَ الحديثِ عن إرادتِه، ولم تذكرْ وُقوعَه وكذلك إرادةُ الرّحمةِ؛ لأنَّ وقوعَه لا يتخلَّفُ عن إرادتِه[1].

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 260.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أَرَادَنِيَ﴾:

في المُضيِّ تمكينٌ لإثباتِ الإرادة لله ونفيِها عن آلهةِ المشركينَ

نَظَمَ القرآنُ معنَى الإرادةِ المُسنَدةِ إلى اللّهِ فِعْلًا ماضيًا في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، وقولِه تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾، والظّاهرُ والأصلُ أنْ تُنْظَم فعلًا مضارعًا؛ لأنَّ تعليقَ حصولِ الجزاءِ بحصولِ الشّرط بـ (إنْ)، و(إذا) إنّما يكونُ في الاستقبالِ؛ وإنَّما جاء التَّعبيرُ بالماضي إبلاغًا في تقريرِ إرادته سبحانه؛ ففي أحوالِ الخَلْقِ شواهِدُ على ذلك؛ فيكون قد ظَهَرَتْ إرادتُه تعالى قبلُ؛ أليس اللّهُ خالقَ السّماواتِ والأرضِ؟ ألستم تُقِرّونَ بذلك أيُّها المشركون؟! فإنَّ من كانَ خالقًا كان مُريدًا لا مَحالةَ، وأمّا آلهتُكم التي تدعونها من دونِ اللّهِ؛ فليس لها إرادَةٌ مُطلقًا.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ﴾ دون (أرادكم)

التَّوافقُ مع أمْرِ نبيِّنا ﷺ في مطلعِ السّورة بعبادة الله مُخلِصًا له الدّينَ

أوْقَع القرآنُ فِعْلَ الإرادةِ على ياءِ المُتكلِّم، والمُرادُ به نبيُّنا محمّدٌ ﷺ دونَ أنْ يقولَ نحوَ: (إنْ أرادكم) في الموضعيْن؛ تناسُبًا معَ قولِه تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ فالكلامُ موجَّهٌ إلى ما خوَّفوه من ضُرِّ أصنامِهم إيّاهُ. ولما فيه من الإيذانِ بإمحاضِ النَّصيحةِ[1].

سِرُّ العُدولِ في قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ﴾

الذّاتُ التي خلقَها اللهُ هيَ بينَ يديْهِ يفعلُ بها ما يريدُ

عدَل القرآنُ عن تعديةِ فِعْلِ الإرادةِ للضُّرِّ والرَّحْمةِ إلى تعديتِه لضميرِ المُتكلِّم ذاتِ المضرورِ والمرحوم؛ معَ أنَّ مُتعلَّقَ الإراداتِ المعاني دونَ الذّواتِ؛ فكان مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يُقال: (إنْ أراد ضرّي أو أراد رحمتي)؛ وإنّما عُدِلَ عن ذلك لقصدِ الاهتمامِ بالمُرادِ به؛ لإيصالِ المُرادِ إليه؛ حتّى كأنَّ ذاتَه هيَ المُرادُ لمَن يريدُ إيصالَ شيءٍ إليه؛ وهذا من تعليقِ الأحكامِ بالذّواتِ؛ والمُرادُ: أحوالُ الذّواتِ؛ مِثْلُ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: 3]؛ أيْ: أكْلُها، ونَظْمُ التَّركيبِ: إنْ أرادني وأنا مُتلبِّسٌ بضُرٍّ منهُ، أو برحمةٍ منهُ[2].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 602، والآلوسي، روح المعاني: 24/ 6، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 18، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 260.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 17 - 18.

وفي هذه التَّعْديَةِ تصويرُ كمالِ الاقتدارِ الإلهيِّ على الذّاتِ المخلوقةِ، وأنَّ للّه تعالى التَّصرُّفَ المُطْلقَ؛ وفيها إشارةٌ إلى أنَّه تعالى يريدُ ما يُناسِبُ هذه الذّاتَ وما تستحِقُّه، وهذا فيه إشارةٌ إلى كمالِ عِلْمِ اللّه بأحوالِ عبادِه، وإلى عظيمِ حِكْمتِه في تصريفِ أحوالِهم.

دلالةُ إسنادِ الإرادةِ إلى الله:

الإرادةُ إلهيَّةٌ؛ فليس لآلهتِهم مِثْلُها بالكُلِّيَّةِ

أسْنَدَ السَّياقُ القرآنيُّ الإرادةَ إلى اللّهِ فقال: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، و﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ ولم يُسندها إلى غيرِه بأن يقول القرآنُ الحكيمُ: (إنْ ضرَّني أحدٌ)، (أو رحمني أحدٌ)؛ للتَّنْبيهِ صراحةً على أنَّ هذا الضُّرَّ ضُرٌّ إلهيٌّ، وأنَّ هذه الرَّحمةَ رحمةٌ إلهيَّةٌ، وأنَّ إزالةَ هذا الضُّرِّ وكَشْفَه تدلُّ على ألوهيَّة المُزيل الكاشِف، وأنَّ إمساكَ هذه الرَّحمةِ يدلُّ على ألوهيَّة المُمْسِك؛ لأنَّ القضيَّةَ في الأساسِ قضيَّةُ التَّوحيدِ والشِّرْكِ، وكلُّ هذا إنَّما هو لطَرْدِ الخوفِ من غيرِ اللّهِ من القلوبِ، ورسوخِ الخوفِ منه تعالى وحْدَه.

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الجلالةِ مُظْهَرا:

إبـــرازُ كـمـالِ الأُلـوهـيَّـةِ جلالًا وجمالًا

كانَ الظّاهرُ أنْ يُسْنِد القرآنُ الإرادةَ إلى ضميرِ اسْمِ الجلالة في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ لذِكْرِ اسم الجلالة مُظْهَرًا في السِّياقِ القريبِ المُباشِرِ مرَّتَيْن؛ مرَّةً على الأصلِ في جوابِ القَسَمِ في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، ومرَّةً على خلافِه؛ وضْعًا للمُظْهَرِ موضِعَ المُضْمرِ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ فصرَّح به في هذا الموضِعِ الثّالثِ كالثّاني؛ ليكونَ نَصًّا في بيانِ أنَّ المُريدَ والضّارَّ إلهٌ له كمالُ الألوهيَّة جلالًا وجمالًا، وأنَّ المُزيلَ والكاشِفَ إنْ أزالَ الضُّر، وكشَفَه إلهٌ كذلكَ؛ لأنَّ القومَ في غفلةٍ عظيمةٍ وتناقُضٍ شديدٍ؛ فهم يُقِرّون بأنَّ اللّهَ خالقُ السّماواتِ والأرضِ؛ وهم يدّعون من دونه هذه الأصنامَ.

دلالةُ تعديةِ فعلِ الإرادةِ بالباء:

سبحان من أحاطَ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا!

فِعْلُ الإرادةِ قد يُقْصَدُ تعديتُه إلى شيئَيْنِ، وحينئذٍ يُعدَّى بنفسِه إلى الأوَّلِ، ويُعدَّى إلى الثّاني بحرفِ جَرٍّ؛ نحو: ﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: 25]. فهو هنا تعدَّى إلى الثّاني بالباء في قوله: ﴿بِضُرٍّ﴾، و﴿بِرَحْمَةٍ﴾؛ ومعناها: الإلصاق والاختلاط، وهوَ المُعَبَّرُ عنهُ بالمُلابَسَةِ؛ فتدلُّ على كمالِ اقتدارِ اللّهِ تعالى على كلِّ ضُرٍّ وعلى كلِّ نفعٍ/رحمةٍ؛ لأنَّ مدخولَ الباءِ نكرةٌ تدلُّ في سياقِ الشَّرْطِ على العمومِ؛ وهو مُحيطٌ بكلِّ ضُرٍّ وكلِّ نفعٍ ورحمةٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالضُّرِّ دونَ الشَّرّ:

القرآنُ يُعلِّمُنا كيفَ نتأدَّبُ معَ اللهِ خالقِنا

عبَّرَ القرآنُ بالضُّر في قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، ولم يُعبِّر بالشَّرِّ؛ لأنَّ الشَّرَّ يَرْغَبُ عنه كلُّ أحدٍ، فيكون فيه دلالةٌ على عدمِ الرِّضا والتَّسْليم، وعلى أنَّه انتقامٌ وعقابٌ، لا بلاءٌ. وأمّا الضُّرُّ فهو المناسِبُ لكونِه بلاءً، والدّالّ على الرِّضا والتَّسْليم.

ولأنَّ هذهِ الآيةَ بتمامِها تحقيقٌ وتوكيدٌ في المعنَى لجملةِ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ التي هي رَدٌّ في المعنَى على جملة: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ فالذي استَدْعَى ذِكْرَ الضُّرِّ، والنَّفْعِ المُعبَّرِ عنه بالرَّحْمةِ في قولِه تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ قولُه تعالى في السِّياقِ القريبِ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

دلالةُ التَّنْكيرِ في قولِهِ: ﴿بِضُرٍّ﴾:

مَن لم يَكْشِفِ الضُّرَّ القليلَ لم يَكْشِفِ الكثيرَ

نظَمَ القرآنُ معنَى الضُّرِّ نَكِرةً في قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ للدَّلالةِ على كمالِ انتفاءِ الخالقيَّةِ عن الآلهةِ التي يعبدُها أهلُ الشِّرْكِ من دونِ اللّهِ بانتفاءِ القدرةِ عنها، ولأنَّ في التَّنْكيرِ دلالةَ التَّقْليلِ والتَّحقيرِ؛ أو دلالةَ العمومِ؛ أيْ: (إن أرادني اللّه بأيِ ضرٍّ فهل هنَّ كاشفاتُ ضُرِّه؟)؛ والمآلُ واحدٌ؛ فهذا إبلاغٌ في إقامةِ الحُجَّةِ على أهلِ الشِّرْكِ، وفي الرَّدِّ عليهم تخويفُهُم؛ فإنَّ آلهتَهُم ليس يتأتَّى منها كَشْفُ أدنى ضُرٍّ.

سِرُّ حذفِ الفاءِ من جوابِ الشَّرط:

الإسـراعُ إلى مـواجـهـةِ أهـلِ الشِّركِ

حذَف القرآنُ الفاءَ في صدرِ جملة: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾؛ على أنَّها جوابُ الشَّرطِ في قوله: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾، وكذلك في صدرِ قولِه تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾؛ للدّلالةِ على الإسراعِ إلى مواجَهَةِ أهْلِ الشِّرْكِ بهذيْنِ الاستفهاميْنِ اللَّذَيْنِ هما ذِرْوَةُ سياقِ الحِجاجِ؛ إبلاغًا في إفحامِهم وتعجيزِهم. وفيه أيضًا إنباءٌ بكمالِ ظهورِ ترتُّبِ الجوابِ على الشَّرْط؛ أيْ: إنَّ من الظّاهرِ جِدًّا أنْ لا يكون من هذه الآلهة الباطلةِ كَشْفُ ضرِّه، ولا إمساكُ رحمته.

وممّا يُذكر في حذفِ الفاءِ أنَّها جاءتْ وفقَ استعمالِ العربِ إذا صُدِّر الجوابُ بأداة استفهامٍ غيرِ الهمزةِ يجوزُ تجرُّدُه عن الفاءِ الرّابطة للجواب؛ كقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٧﴾ [الأنعام: 47]. ويجوزُ اقترانُه بالفاء؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ [هود: 63][1].

بلاغةُ الاستفهامِ بـ﴿هَلۡ﴾ دونَ الهمزة:

إقـامـةُ الحُـجَّـة على أهلِ الشِّركِ عابدي الأصنامِ

بنَى القرآنُ قولَه تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ وقولَه تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ على الاستفهام، وغرضُه الإنكارُ بمعنَى النَّفْي والتَّعْجِيز وتَبْكيت المُخاطَبينَ، وإنَّما جعَلَه بـ﴿هَلۡ﴾؛ لإفادةِ تحقيقِ الإنكارِ؛ لأنَّ (هَلْ) تَخْتَصُّ بالتَّصْديق، وتَجْعَلُ المضارعَ للاستقبالِ؛ فكانَ لها مزيدُ اختصاصٍ بما كونُه زمانيًّا أظهرَ كالفِعْلِ، فلَمّا دخلَتْ على اسميْنِ في هاتيْنِ الجملتيْنِ: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، و﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾؛ كانَتْ معاني الاستفهامِ من الإنكارِ وغيرِه أبلغَ؛ لأنَّ إبرازَ ما سيتجدَّدُ (هل تكشف ضره) و(هل تمسك رحمته) في مَعْرِضِ الثّابتِ ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ و﴿هَلۡ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 17، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 260.

هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ أدلُّ على كمال العنايةِ بحصولِه من إبقائه على أصله. والإنكارُ الذي في ﴿هَلۡ﴾ يُؤكِّد الإنكارَ المفهومَ من الهمزةِ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾[1]. وعبَّر بـ ﴿هَلۡ﴾ في هاتَيْنِ الجملتَيْنِ؛ لأنَّ مَضْمونَهُما ذِرْوَةُ إقامةِ الحُجَّةِ على أهلِ الشِّرْكِ عابدي هذهِ الأصنامِ.

دلالةُ التَّأنيثِ في: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾ ﴿مُمۡسِكَٰتُ﴾

التقريعُ والتوبيخُ للمُشركين بعبادةِ الضُّعفاءِ

عبَّر القرآنُ الكريمُ بالتَّأنيثِ عن الأصنامِ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ وقولِه تعالى: ﴿مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ للإشارةِ إلى دناءتِها وسُفولِها إبلاغًا في تنبيهِهم ونُصْحًا لهم ليرجعوا عن ظاهرِ غيِّهم[2]. فالتَّأنيثُ يتأسَّسُ عليه الاستفهامُ؛ فمِن شأنِ آلهةٍ هذه حالُها أنْ يُراجِعوا أنفسَهُم في عبادتِها ودعائِها من دونِ اللهِ، وبالتَّأنيث تعلو نبرةُ التَّقريعِ والتَّبكيتِ والتَّشْهيرِ والتَّوبيخِ.

سِرُّ التّعبيرِ عن الأصنامِ بالتّذكيرِ ثمّ بالتّأنيثِ:

الأصنامُ لا تملكُ لنفسها ضرًّا ولا نفعًا

عَبَّر القرآنُ الكريمُ عن الأصنامِ بالتَّذكيرِ في قولِه تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ ثمّ التَّأنيث بعد ذلك في قوله: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، ﴿مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾، وذلك لكون تأنيثهن لفظيًّا؛ حيث عبَّر باللّاتِ والعُزَّى ومَنات؛ أو لزعمِهم أنَّ الملائكةَ إناثٌ، قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النَّجم: 21].

وللتَّنبيه على كمال ضعفها؛ لأنَّ الأنوثةَ طبيعتُها الضَّعفُ؛ فكيف يعبدون آلهةً تحتاجُ إلى من يحميها كما أنَّ الإناثَ تحتاجُ إلى مَن يحميَها، ولأنَّ الأُنوثةَ من باب اللّينِ والرَّخاوةِ، وفي هذا مزيدُ تهكُّمٍ بهم[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 17، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 439 - 440، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 260.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 450، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 17.

(3) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 532.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾:

إبرازُ المعقولِ في سورةِ المحسوسِ

تظهرُ بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، والمُرادُ بكَشْف الضُّرِّ مَحْوُه وإزالتُه؛ فقد شُبِّه الضُّرُّ المعقولُ بشيءٍ حِسّيٍّ مُسْتَتِرٍ على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، وإثباتُ الكَشْفِ لازمُ المُشبّهِ بهِ المحذوفِ للمشبَّه المذكور تخييليَّةٌ؛ وهي قرينةُ المكنيَّةِ، ويجوزُ أنْ تكونَ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً في اسْمِ الفاعِلِ: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾؛ فقد استُعير الكَشْفُ الحِسّيُّ للإزالةِ المعقولةِ.

ومن بلاغةِ هذه الاستعارةِ الإيحاءُ بأنَّ الضُّرَّ جاثمٌ فوقَ من نزلَ به، والجامعُ بينهما ما يترتَّبُ على كلٍّ من الكَشْفِ والإزالةِ من تبديلِ الأحوالِ"[1].

سِرُّ التَّعبير بالكشفِ دونَ غيرِه:

الضُّرُّ مُتمكِّنٌ ممَّن نزلَ به، واللهُ وحدَه من يكشِفُهُ

آثَرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالكَشْف دونَ غيرِهِ في قولِهِ: ﴿هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ لِما فيه من بلاغةٍ لا تتأتّى في معنى الإزالةِ، ولأنَّه الأنْسَبُ بطلبِ النَّبيِّ ﷺ منهم إقامةَ الحُجَّةِ على دعواهم أنَّ الأصنامَ آلِهَةٌ لها سلطةٌ وقوّةٌ، وأنَّى لهم ذلك، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الضُّرَّ مُتمكِّنٌ ممَّن نَزَلَ به؛ لأنَّ الكشفَ لا يكون إلّا لِمَنْ تلبَّس به الضُّرُّ، قال تعالى: ﴿*وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ [الأنبياء: 83 - 84].

التَّوجيهُ البلاغيُّ للقراءات في: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾، و﴿مُمۡسِكَٰتُ﴾:

الدّلالةُ على أنَّ آلهتَهم الباطلةَ لا تملك كشفًا ولا إمساكًا

قرأ أبو عمرٍو ويعقوب قولَه تعالى: ﴿كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، وقولَه تعالى: ﴿مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾: بتنوين كلمتَيْ (كاشفات) و(ممسكات)، ونَصْبِ كلمةِ (ضرَّه) و(رحمتَه) على أنَّ المُنوَّنَ اسمُ فاعلٍ بشرطِه؛ فيعملُ عملَ فِعْلِه، ويتعدَّى لواحدٍ لنَفْسِه، وإلى آخَرَ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 440.

بـ (عَنْ)، وهذا هو الأصلُ في اسْمِ الفاعلِ. وقرأهما الباقون بغيرِ تنوينٍ فيهما، وجَرِّ ﴿ضُرِّهِۦ﴾ و﴿رَحْمَتِهِۦٓ﴾ على الإضافةِ اللَّفظيَّةِ.

ووجهُ من قرأ بالتّنوينِ[1] - والتي هي الأصلُ لقراءةِ الإضافةِ مَعَ ضميمةِ أنَّ التَّنْوينَ قوَّةٌ وأنَّ الاسم يدلُّ على الثُّبوت والدَّوام - الدّلالةُ على قَصْدِ أصلِ كَشْفِ ضُرِّه، وأصلِ إمساكِ رحمته؛ أيْ: إنَّ كلًّا من الكَشْفِ والإمساكِ فيها قويٌّ كاملٌ تامٌّ. وتُحْمَلُ قراءةُ الإضافةِ التي يقِلُّ فيها ثِقَلُ التَّنْوينِ، ويَظْهَرُ فيها التَّخْفيفُ على قَصْدِ أدنى كَشْفٍ، وأدنى إمساكٍ؛ ووراءَ هذا من المعنَى تقريرُ أنَّ آلهتَهُم الباطِلةَ لا يكونُ منها البتَّةَ أيُّ مستوًى من مستوياتِ الكَشْفِ والإمساكِ المذكورَيْنِ، وإنَّما لم يُكْتَفَ بقراءة التَّنْوينِ التي هي الأصلُ تأسيسًا على "أنَّ الآيةَ بُنِيَتْ على البَسْطِ والتَّحْليلِ"[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالإظهارِ في مقامِ الإضمار:

ما يَقْدِرُ عليه ذو الجلالِ والإكرامِ لا يَـقْـدِرُ عليه غيرُه أبدًا

كان الظّاهرُ أنْ يقولَ القرآنُ: (هل هن كاشفاتُه)، و(هل هن ممسكاتُها) بعوْدِ الضّميرِ المُضافِ إليه على الضُّرِّ والرَّحمة؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: 2]. قال: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: 2]؛ أيْ: للرّحمة، وقال: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ [فاطر: 2]؛ أيْ: لِما أمسكه، أو لِما يُمسكه. ولكنَّهُ أعادَ ذِكْرَهُما بالإظهار فقال تعالى: ﴿كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ و﴿مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؛ إشارةً - مع ضميمةِ الإضافةِ إلى ضميرِ اللّه تعالى - إلى أنَّ مِثْلَ ضُرِّه تعالى لا تكشفُه آلهتُهم، وأنَّ مِثْلَ رحمته لا تُمسكه آلهتُهم؛ فهما باقيانِ ظاهرانِ لا تؤثِّرُ فيهما تلك الأصنامُ الباطلةُ الحقيرةُ بشيءٍ!!. وتنبيهًا على أنَّ القرآنَ لو

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 531 - 532، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 451، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 481، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 18.

(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 260.

كرَّرَ عليهم مِثْلَ هذيْنِ السُّؤالَيْنِ فلَنْ يُجيبوا إلّا بالإنكارِ والنَّفْيِ، ومِن سَمْتِ هذا الحِجاجِ في هذه الآيةِ التَّفْصيلُ.

فائدةُ الإضافةِ إلى ضميرِ اسمِ الجلالة:

المبالغةُ في تقريرِ صفةِ الخَلْقِ للهِ وقدرتِهِ

مِن فوائدِ إضافةِ الضُّرِّ والرَّحمةِ إلى ضميرِ اسْمِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿ضُرِّهِۦ﴾ و﴿رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أنْ يتأسَّسَ عليها تَكرارُ ذِكْرِ الضُّرِّ والرّحمةِ؛ ليفيدَ ما ذكرناهُ من قبلُ؛ ومنها: المبالغةُ في تقريرِ خالقيَّةِ اللهِ وقُدْرتِه؛ إمعانًا في لَفْتِ أهلِ الشِّرْكِ إلى خلوِّ آلهتِهم من ذلك على جهة الكمالِ والتَّمام إحسانًا إليهم؛ لأنَّهُم نيامُ العقلِ والقلبِ.

سِرُّ حَذْفِ مُتعلَّقِ فِعْلَيِ الكشفِ والإمساك:

آلهةُ المُشركين لا تُزْجَى في الشَّدائدِ مطلقًا

حذَف القرآنُ مُتعلّق فِعْلَيِ الكَشْفِ والإمساكِ في قولِه تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، وقوله تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾، والتّقديرُ: (كاشفات ضُرِّه عنّي، وممسكات رحمتِهِ عنّي)؛ أيْ: مانعاتُ رحمتِه عنّي[1]، وذلك لإفادةِ العموم؛ أيْ: إنَّهنَّ لا يَكْشِفْنَ أيَّ ضُرٍّ أرادَه اللهُ بأيِّ أحدٍ، ولا يُمْسِكْنَ أيَّ رحمةٍ أرادَها اللهُ بأيِّ أحدٍ، وهذا يُراعي غفلةَ القومِ وغباءَهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَوْ﴾:

إظهارُ كمالِ الأُلوهيّةِ على جهةِ الكمالِ والتَّمامِ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَنِى﴾؛ لأنَّ من معانيها التَّقسيمَ بقرينةِ التَّقابلِ بينَ إرادة الضّرِّ وإرادةِ النَّفْعِ المُعبَّرِ عنه بالرَّحمةِ؛ فهما قِسْمانِ مُتقابِلانِ معنًى، ومُتشاكِلانِ نَظْمًا، وهذا من مُحسِّناتِ الوَصْلِ بينهما.

سِرُّ تقديمِ ما يتعلَّق بدفعِ الضُّرِّ على ما يتعلَّق بإمساكِ الرَّحمة:

دفعُ الضُّرِّ مُتقدِّمٌ على جلبِ النَّفعِ

قدَّم القرآنُ الكريمُ في الذِّكْرِ المعنى المُتعلِّقَ بدَفْعِ الضُّرِّ على المعنَى المُتعلِّقِ بدَفْعِ النَفْعِ في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ على قولِه: ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 451.

رَحْمَتِهِۦٓ﴾؛ تناسُبًا مع تخويفِهم إيّاه بتلك الآلهةِ الباطلةِ في السِّياقِ القريبِ في قولِه تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ فهو تعريضٌ بهم بذلكَ؛ وبهذا يرجعُ هذا المعنى إلى ما قبلَه؛ كرجوعِ العَجُزِ إلى الصَّدْرِ؛ فتتَّضِحُ حركةُ المعنى في السّياقِ.

سِرُّ عدمِ ذِكْرِ (إنْ) مع قولِه: ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾:

عـجـزُ الآلـهـةِ المـزعـومـةِ عن كـشـفِ الـضُّـرِّ يلزمُ منه العجزُ عـن إمـسـاكِ الرَّحمةِ

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ: ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ من غير ذِكْر (إنْ) كما في قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من بابِ الإشعارِ بكمالِ ظهورِ عَجْزِ الأصنامِ وغيرِها عن أنْ تَخْلُقَ شيئًا؛ كأنَّ عجْزَها عن أنْ تكشفَ ضُرًّا أرادَه اللّهُ به يلزمُ منه بقوَّةٍ عَجْزُها عن أنْ تُمسِكَ رحمةً أرادَه اللّهُ بها، فلا يحتاجُ البيانُ عن عجْزِها إلى مبالغةٍ بتَكرارِ الأداةِ. ولو أُعيدَتْ: (إنْ) لأفْهَمَ تَكرارُها الإبلاغَ في نفي الخَلْقِ والقدرةِ عنها من جهةِ احتمالِ أنّها قد تمسكُ رحمةً أرادَه اللّهُ بها وإنْ لم تكْشِفْ ضرًّا أرادَه به؛ فاحتيج إلى الدَفْع بتَكرارِها، لكنَّ شأنَها ليس كذلك؛ وإنّما عجزُها في غايةِ الظُّهورِ والوضوحِ. ولمّا كان المعطوفُ على الشَّرْطِ شرطًا؛ كان الظّاهرُ والأصلُ أنْ لا تُعاد كلمةُ الشَّرطِ (إنْ) في جملة المعطوف؛ فلا يُقال: (أو إنْ أرادني برحمة).

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ في: ﴿أَرَادَنِى﴾:

السَّفَهُ والغباءُ من سماتِ عَبَدَةِ الأصنامِ

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالضَّمير عن اسم الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ للدّلالةِ على كمالِ ظهورِ أنَّ المُريدَ والفاعلَ إنّما هو اللّهُ تعالى؛ فمِن شدَّةِ ظهورِ ذلك لم يحتجْ إلى إبرازِه بتَكرارِ اسمِ الجلالةِ اسْمًا مُظْهَرًا، وأنَّ الأصنامَ من الظّاهرِ جدًّا أنّها لا إرادةَ لها.

بلاغةُ المجازِ المُرْسَلِ في قولِه: ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾

دينُ اللهِ رحمةٌ، ونبيُّه رحمةٌ

تَظهرُ بلاغةُ المجازِ في تعبيرِ القرآنِ عن النَّفْعِ بالرَّحْمةِ في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ بقرينة قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ مجازًا مُرسَلًا لعَلاقَة المُسبَّبيَّة؛ فإنَّ النَّفْعَ سببٌ في الرَّحْمةِ،

وللتَّعْريضِ بأنَّ ما اخْتَصَّ اللّهُ به نبيَّهُ محمَّدًا من كونِه نبيًّا ورسولًا ورحمةً للعالمين رحمةٌ وإحسانٌ، وأنَّ كلَّ نَفْعٍ لرسولِ اللّه ﷺ إنّما هو نَفْعٌ لأمَّتِه، ورحمةٌ لهُم.

دلالةُ التَّنْكيرِ في قولِهِ: ﴿بِرَحْمَةٍ﴾:

اتِّساعُ دائرةِ الحِجاجِ أبلغُ في الإقناعِ

نظَم القرآنُ معنَى الرَّحمةِ نكرةً في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ للدّلالةِ على العموم، أيْ: وإنْ أرادني اللّهُ بأيِّ رحمةٍ فهل هُنَّ ممسكاتُ رحمتِه؟ وهذا يُبْرِزُ كمالَ عَجْزِ الأصنامِ ومِثْلِها عن أنْ تَخْلُقَ شيئًا، أو أنْ تَقْدِر على شيءٍ؛ لأنَّه يوسِّعُ دائرةَ التَّحدّي، فلا يكادُ يفلتُ المشركونَ من الإقرارِ بذلك العجزِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِۦ﴾:

إبرازُ المنعِ المعنويِّ بالإمساكِ الحِسّيِّ تجسيدٌ للمعنى

تظهرُ بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِۦ﴾، وذلك باختيارِ لفظِ الإمساكِ الذي تدورُ مادَّتُه على حَبْسِ الشَّيْءِ أو تحبُّسِه. والرَّحْمةُ شيءٌ معنويٌّ معقولٌ؛ شبَّهَها القرآنُ بشيءٍ يُمْسَكُ؛ أيْ: يُحْبَسُ، وإثباتُ الإمساكِ لازمِ المُشَبَّهِ به المحذوفِ للمُشَبَّه المذكورِ تَخْييليَّةٌ؛ وهيَ قرينةُ المَكْنيَّةِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً في اسْمِ الفاعِلِ: ﴿مُمْسِكَاتُ﴾؛ أيْ: مانعاتٌ، فقد شُبِّه المَنْعُ المعنويُّ بالإمساكِ الحِسّيِّ؛ تجسيمًا للمعنَى؛ ولِما في الإمساكِ من قوَّةِ المَنْعِ[1]. والإمساكُ الحِسّيُّ أبلغُ؛ لأنَّه الأنْسَبُ بطلبِ النَّبيِّ منهم إقامةَ الحُجَّةِ بالأصنامِ على أنَّها آلِهَةٌ.

بلاغةُ الطِّباقِ في الآية:

تظهرُ بلاغةُ الطِّباقِ في هذه الآيةِ لجمعِها بين الضّرِّ والرّحمةِ والإرادةِ والإمساكِ، وهذا مسلكٌ دقيقُ المأخذِ بليغُ المعنى اقتضاه المقامُ[2].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (مسك)، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 440.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 441.

سِرُّ فَصْلِ الأمْرِ بـ ﴿قُلْ﴾ عمّا قبلَه:

مجموعُ ما قَبْلَ الأمـرِ يُـحـرِّكُ النَّفْسَ لتلقّيهِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ[1] لَمّا عجزَ أهلُ الكفرِ والشِّرْكِ بهذه الحُجَّةِ الواردة في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ولم يُحيروا ببِنْتِ شَفَةٍ؛ لِما يعلمون من لزوم التَّناقُضِ كأنَّ النّبيَّ ﷺ سأل ربَّه قائلًا: وماذا أقولُ لهم بعد ذلك؟ أو أنَّ السّامعَ سأل عن ذلك؛ فكان الجوابُ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

وممّا يُذكرُ في سِرِّ الفصلِ أنَّ القرآنَ لم يعطفْ هذا الأمرَ على نظيرِه؛ لاختلافِ مَقولِ القولَيْنِ، وعدمِ القَصْدِ إلى ضمِّهما وإشراكِهما.

سِرُّ إعادةِ الأمرِ بالقولِ: ﴿قُلْ﴾ دونَ إدراجِهِ في السّابق:

بيـانُ أنَّ هـذا الـقـولَ شـعـارٌ لـلـنّـبـيِّ ﷺ وللمؤمنين معه

أعادَ القرآنُ الأمرَ بالقولِ ولم ينظِمْ ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ في جملةِ الأمرِ الأوَّلِ؛ لأنَّ هذا المأمورَ بأن يقولَه ليس المقصودُ توجيهَه إلى المشركين؛ فإنّ فيما سبقَهَ مَقنعًا من قلّةِ الاكتراثِ بأصنامِهم؛ وإنَّما المقصودُ أن يكون هذا القولُ شعارَ النّبيِّ ﷺ في جميعِ شؤونِه، وفيه كذلك تعليمٌ للمؤمنين في أمورِ دينِهم ودُنياهُم، وفيه إشارةٌ إلى استقلالِ هذا الغَرَضِ عن الغَرَضِ السّابقِ عليه[2].

سِرُّ تكرار ﴿قُلْ﴾ مع قولِهِ: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾:

اللهُ كـافٍ نبيَّه وهو حسبُه

أعادَ القرآنُ الأمْرَ بـ ﴿قُلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ ولم ينتظم قولُه تعالى: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ في جملة الأمْرِ الأوَّلِ السّابقِ على هذا الأمرِ؛ لأنَّ هذا المأمورَ بأنْ يقولَه الرّسولُ ليس المقصودُ توجيهَهُ إلى المشركينَ؛ فإنَّ فيما سبَقَه مَقْنَعًا من قِلَّة الاكتراثِ بأصنامِهم؛ وإنّما المقصودُ أنْ يكون هذا القولُ شِعارَ النّبيّ ﷺ في جميعِ شؤونه، وفيه حَظٌّ للمؤمنينَ معَه حاصِلٌ من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 451، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 16.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 18.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ فإعادةُ الفعْلِ ﴿قُلْ﴾ للتَّنْبيهِ على استقلالِ هذا الغرضِ عن الغرضِ الذي قبلَه[1].

بلاغةُ مجاورةِ ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾:

للتَّجاوُرِ بينَ المعاني دلالاتٌ

تظهرُ بلاغةُ جملةِ ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ مع ما قبلَها في شِدَّةِ الاتّصالِ؛ فهي مُمْسِكةٌ بما قبلَها؛ كأنَّها واقعةٌ موقِعَها؛ لأنَّ معناها أنَّ اللهَ كافيني، ومَن اكتفَى باللهِ لا يحومُ حولَه العوزُ، ولا يحومُ حولَه العجزُ، ومَن اعتقد أنَّ اللهَ هو كافيهِ، لا يُتصوّر أنْ يجد لنفسه حاجةً عند غيرِ اللهِ، وهذه الجملةُ تُشيرُ إلى أنَّ الذين خوطِبوا بقولِهِ تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ و﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ قد ظلّوا مُتشبِّثينَ بمَن يدعونهم من دونِ اللهِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (الحَسْب) في قولِهِ: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾:

للّفظِ معنًى مخصوصٌ يُناسِبُ حالَ النَّفْسِ في السّياقِ

عبَّر القرآنُ بالحَسَبِ في قولِهِ: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّها أنْسَبُ بموقعِ جملتِها في السّياقِ؛ فقد جاءت جملتُها بعدَ حِجاجِ أهلِ الشِّرْكِ وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، وسكوتِهم الدّالِّ على إصرارِهم على الكُفْرِ والشِّرْكِ، وهذا مِمّا يُؤذي الدّاعيَ والمُبلِّغَ ﷺ؛ ولأنَّ التَّعبيرَ بـ ﴿حَسْبِيَ﴾ هو الألصقُ في هذا المقامِ لِما فيه من معنَى التَّعْديدِ؛ كأنَّ قائلَ: ﴿حَسْبِيَ﴾ يُفوِّضُ أمْرَه للهِ؛ وهو يستحضرُ ما حدَثَ معَه، أو ما سيحدُثُ معَه من سوءٍ؛ مِمّا يقعُ من المُشركين.

دلالةُ الإضافةِ إلى ياءِ المُتكلم في: ﴿حَسْبِيَ﴾:

تفويضُ الأمورِ إلى اللهِ فيه اطمئنانٌ للنَّفسِ

أضافَ القرآنُ الحَسْبَ إلى ياءِ المُتكلِّم ﷺ في قوله تعالى: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾؛ دلالةً على كمالِ الإحْساسِ بالافْتِقارِ إلى الكافي المُفوَّضِ إليه الأمْرُ، وهو اللهُ تعالى، وإلقاءً بالذّاتِ وأحوالِها في ساحةِ التَّفويضِ والمُفوَّضِ إليه كلُّ أمْرٍ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 18.

(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 261 - 262.

سِرُّ التّعبيرِ باسْمِ الجلالةِ دونَ الإضمار:

نَفْسُ المُفَوِّضِ شديدةُ الافتقارِ إلى أنْ تمتلئ بالأُنْسِ باللهِ

عبَّر القرآنُ الكريمُ باسمِ الجلالةِ مُظهَرًا في قولِهِ: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ دون أنْ يقول القرآن: (حسبي هو)، أو: (هو حسبي)، وضميرُ الفَصْلِ المقصودُ به اسْمُ الجلالةِ، لكنَّ القرآنَ صرَّحَ باسم الجلالة؛ إشارةً إلى أنَّ الأبَرَّ بنَفْسِ المُفوِّضِ في هذا السّياقِ الذي يُصِرُّ فيه أهلُ الكُفْرِ والشِّرْكِ على كفرِهم وشركِهم؛ فلم يُجيبوا على هذيْن الاستفهاميْن: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، و﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؛ ممّا يوحِشُ نَفْسَ المُبلِّغِ عن اللهِ استِحْضارُ كمالاتِ اللهِ جلالًا وجمالًا؛ للأُنْسِ به سبحانه، ويُؤْنِسُ بهذا إضافةُ الحَسْبِ إلى ياءِ المُتكلِّم.

سِرُّ حذفِ مُتعلّق حسبي الله:

كفايةُ اللهِ للمؤمنِ في كلِّ أمورِهِ

يُلاحَظُ أنَّ جملة ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ لم تُقيِّد كفايةَ المؤمن بربِّه في كشفِ الضُّرِّ وطلبِ الرَّحمةِ، وإنّما أطْلَقَت المعنى؛ فلم تَقُلْ: (حسبي اللهُ في هذا الأمر)؛ وإنّما قالت: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ بحذفِ المتعلِّقِ؛ أيْ: (في كلِّ أمرٍ، وحسبي اللهُ فيما كان، وفيما يكونُ، وفيما هو كائنٌ، وحسبي اللهُ من كلِّ شيء، وفي كلِّ حالٍ)؛ فهذه الجملةُ لا حدودَ لها، ولا حدودَ لآثارِها، ولا حدودَ لِما تُكْسِبُه قائلَها الصّادقَ من اطمئنانٍ ورِضًى وإحساسٍ بالكِفايَة وبالأمْنِ[1].

سِرُّ فَصْلِ جملةِ ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾:

شدّةُ الاتّصالِ بين معاني الجُمَلِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّها نِتاجُ جملة ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ التي هي نِتاجُ ما قبلَها؛ لأنَّها مُؤكِّدةٌ له؛ فهي موصولةٌ به من ذاتِ نفسِها، وموصولةٌ به أكملَ اتِّصالٍ[2]، وهذا التَّوكيدُ المُتتابِعُ لهذه الحقيقةِ الجليلةِ كلُّه توكيدٌ للتَّوحيد المُنْتِجِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 18، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 262.
(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 263.

للإنسانِ الذي حسْبُه اللّه، والإنسانِ الذي لا يتوكَّلُ ولا يُفوِّضُ في شأنِه أحدًا إلّا اللّه؛ فهذه الجملةُ القَصْريَّةُ: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أكَّدتْ هذا المعنى.

بلاغةُ التَّذييلِ بجملةِ: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾:

كلُّ مؤمنٍ يعرفُ اللهَ حقَّ معرفتِهِ يعتمدُ على كفايتِه دونَ غيرِهِ

تظهرُ بلاغةُ التّذييلِ في جملة: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ في كونها صالحةً لأنْ تكون داخلةً في حيِّز القولِ، والمعنى: (قلْ حسبي اللّهُ، وقلْ: عليه يتوكّل المتوكّلون)، فتكون مِمّا أمَر اللّهُ بأنْ يقولَه نبيُّه ﷺ تذكُّرًا من النّبيّ، وتعليمًا للمسلمينَ؛ فتكون الجملةُ تذييلًا للتي قبلَها؛ لأنَّها أعمُّ منها باعتبار القائلين؛ لأنَّ قوله: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ يؤول إلى معنى: (توكلتُ على اللّهِ)؛ أيْ: (حسبي أنا، وحسبُ كلِّ مُتوكِّلٍ).

وجملة ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ صالحةٌ كذلك لأنْ تكون من تعقيبِ الحقِّ تعالى على الكلام الذي مضَى؛ فيكون اللّهُ قد خاطَب بها رسولَه ولم يأمرْه بأنْ يقولها؛ فتكون الجملةُ تعليلًا في المعنى للأمرِ بقولِ: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: اجعَلِ اللّهَ حسبَك؛ لأنَّ أهلَ التّوكُّل يتوكَّلون على اللّهِ دون غيرِهم، وهم الرُّسُلُ والصّالحونَ، وإذ قد كنتَ يا محمّدُ من رفيقِهم؛ فكُن مِثْلَهم في ذلك[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(على)

الدّلالةُ على عظيمِ افتقارِ هؤلاءِ المتوكّلين إلى اللهِ لشدّةِ ضعفِهم وعجزِهم

الحرفُ (على) معناه الاستعلاءُ؛ وهو إمّا حِسّيٌّ؛ وهو الأصلُ، وإمّا مجازيٌّ كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 5]. وأمّا هنا فلا مجالَ للاستعلاءِ بنوعيْه هذيْن؛ لأنَّ الحرفَ مُسلَّطٌ على ضميرِ اسْمِ الجلالةِ؛ وإنّما يُفسَّرُ الحرفُ بما يُناسِبُ سياقَ معناه الواردِ هو في حيِّزِه؛ فيدلُّ هنا أوَّلًا على عظيمِ افتقارِ هؤلاءِ المُتوكِّلينَ إلى اللّه؛ لعِظَم عجْزِهم وشديدِ ضعفِهم واعتمادِهم على اللّهِ مولاهُم، ويدلُّ ثانيًا على عظيمِ إقبالِهم بكُلّيّاتِهم على اللّهِ ﷻ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 19، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 263.

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ عن اسمِ الجلالةِ (الله)

مَـن عـرَف اللهَ فحصَل في قلبِه يـقـينٌ؛ تـوكَّـلَ عليه

عبَّر القرآنُ عن اسم الجلالةِ بالضّميرِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ لأنَّ هذا هو الأصلُ؛ لأنَّ مقامَ التَّوكُّلِ مقامٌ عظيمٌ؛ إنّما يقومُ فيه وبه من كانَ عارفًا باللّهِ؛ أيْ: بصفاتِه التي تدلُّ على كمالِ جلالِه وكمالِ جمالِه؛ لأنَّه لا يُفوِّضُ الأمْرَ إلّا لمَن يعتقدُ أنّه كافيهِ لا محالةَ، ولو عُبِّر باسْمِ الجلالة فقيل: (على اللّه يتوكّل المتوكّلون)؛ لدلَّ على شِدَّةِ صعوبةِ تحقيقِ التَّوكُّلِ، وكيفُ يكونُ كذلك؛ والغرضُ الحَثُّ على اتِّخاذِه شِعارًا في حياتهم وشئونهم.

دلالةُ تّقديمِ الجارِّ والمجرورِ عليه:

قـصـرُ تـوكُّـلِ المُـتـوكِّـلين على اللهِ

قدَّمَ القرآنُ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيْهِ﴾ على الفعْلِ في قوله تعالى: ﴿يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على قَصْرِ توكُّلِ المُتوكِّلينَ على اللّهِ تعالى المُعبَّرِ عنه بالضَّميرِ في قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾، والمعنى: أنَّهم يتوكَّلون عليه لا على غيرِه، وأنَّه هو الذي يُفوِّضُ خلْقُه أمرَهم إليه، ولا يُفوِّضونه إلى غيرِه، وهذا هو معنى قصرِ التَّوكُّلِ عليه؛ لأنَّ التّوكُّلَ بمعناه الحقيقيِّ لا يكونُ إلّا للّهِ. وهذا القصرُ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ – وهو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ – فيه تسليةٌ وتثبيتٌ لأهلِ الصِّدْقِ والتَّصديقِ، وفيه تعريضٌ بالمشركينَ؛ إذِ اعتمدوا في أمورِهم على أصنامِهم[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالتَّوكُّلِ دونَ غيرِه:

إظـهـارُ كـمـالِ العجزِ للهِ ربِّ العالمين

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالتّوكُّلِ دونَ غيرِهِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ لأنَّه الأنْسَبُ بمعاني السِّباقِ القريبِ؛ ففيه إظهارُ العَجْزِ في الأمرِ، والاعتمادُ على الغَيْرِ[2]. وفي هذا تعريضٌ بأهلِ الشِّرْكِ في عبادتِهم للأصنامِ؛ لأنَّ اللّهَ هو الذي يكشفُ الضُّرَّ ويُمسك الرَّحمةَ؛ ولأنَّ النّاسَ لا تتوكَّلُ إلّا عليه هو تعالى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 19، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 440، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 263.

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (وكل).

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

تَـكـرارُ الـتَّـوكُّـلِ المُطْلَقِ أدلُّ على ألـوهـيَّـةِ الـلـهِ تعالى

نظَم القرآنُ معنَى التَّوكُّلِ فعلًا مضارعًا في قولِه تعالى: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ للدَّلالةِ على استمرار توكُّلِهم على اللهِ في كلِّ شؤونِهم؛ لأنَّ فعل ﴿يَتَوَكَّلُ﴾ "يفيدُ بصيغتِه امتدادَ زمنِ توكُّلِهم وتجدُّدَه؛ فهم في كلِّ حدثٍ يتوكَّلون[1].

بلاغةُ المجازِ المُرسَل في قولِهِ: ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾:

كلُّ النّاسِ فقراء إلى التَّوكُّلِ على اللهِ

دلَّ قولُه تعالى: ﴿يَتَوَكَّلُ﴾ على أنَّ قولَه تعالى: ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لا يُراد به ظاهرُه؛ فهو مجازٌ مُرسلٌ عَلاقَتُه اعتبارُ ما سيكونُ، والأصلُ: على اللّه يتوكَّلُ من يريد التَّوكُّلَ[2]. وفيه بيانُ شدّة احتياجِهم لهذا التَّوكُّل على اللّه؛ فلا ملجأ لهم إلّا اللّهُ؛ ولذلك يُقْبِلون بكُلّيّاتِهم عليه سبحانه. ونتَج عن هذا المجازِ تَكرارُ معنى التَّوكُّلِ: ﴿يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ تنبيهًا على شدَّةِ افتقارِ من يتعاملُ مع أهلِ الشِّرْكِ المُتناقِضين المُصِرّينَ على الضَّلالِ والإضلالِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾:

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسميّةِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ لأنّها تدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوام؛ والمعنى: أنَّهُم من شأنِهم التَّوكُّلُ على اللّهِ، وأنَّهم عُرِفوا بذلك، وشُهِروا به[3].

دلالةُ التَّعريفِ بأل:

المُـتـوكِّـلـون هنا هـم أهــلُ هـذا البابِ

نظَم القرآنُ فاعلَ التَّوكُّلِ مُعرَّفًا بأل في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ وهذهِ الألِفُ واللّامُ تفيدُ معنًى دقيقًا وجليلًا؛ وهوَ أنَّهم همُ الذين تتحقَّقُ فيهم صفةُ التَّوكُّلِ في صورتِها النَّقيَّةِ الصّافيةِ الصّادقةِ، وهذا المعنى وصفَه عبدُ القاهرِ بأنَّه خفيٌّ كالهمس، أو كمَسْرَى

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 263 - 264.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 441.
(3) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 264.

النَّفَسِ في النَّفْسِ، وبتحقُّقِ ذلك في التَّعبير القرآنيِّ تستشرفُ كلُّ نفْسٍ أنْ تدخُل في معناه[1].

سِرُّ التّعبيرِ بجمعِ المُذكَّرِ ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾:

التّوكُّلُ على اللهِ ينبغي أن يكونَ شعارَ الأُمَّةِ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بجمعِ المُذكَّرِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ إرشادًا للمُسلمين أن يجعلوا التّوكُّلَ شعارًا لهم في حياتِهم؛ ليسعدوا ويُفلحوا، وفيه بيانُ أنَّ المُتوكِّلين على اللّهِ جمعٌ كثيرٌ من المسلمين، وفيه إشارةٌ إلى مُراعاة الفواصلِ قبْلها ﴿يَعْمَلُونَ﴾ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إلخ، وبعدَها: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: 42] ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر: 43] ﴿تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: 44] إلخ، وكلُّها مختومةٌ بالنّونِ.

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 263 - 264.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»